مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (2)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (2) 2017

الانتماء إلى المكان في مقدّمة القصيدة الأمويّة

الدكتور عدنان أحمد*
الدكتورة وهران حبيب**
بشرى مهنّا***

(تاريخ الإيداع 17 / 10 / 2016. قبل للنشر في 19 / 3 / 2017)

□ ملخّص □

ينشد هذا البحث دراسة الانتماء إلى المكان في مقدّمة القصيدة الأمويّة، والانتماء علاقة تتّسم بالتّداخل والاندماج بين الشاعر والمكان، ما يدل على قوّة الحضور المكاني في ذات الشاعر على وفق أبعاده المختلفة.

وقد تجلّت علاقة الانتماء إلى المكان في الشعر الأمويّ في مظاهر مختلفة، وصور متعددة؛ منها مقدمات القصائد التي كانت في كثير من جوانبها تجسيدا لتجارب الشعراء، بما فيها من الأمل والبعد والفراق وهاجس العودة...الخ؛ ذلك أن الانتماء إلى المكان ليس انتماء إلى مجال طبيعيّ وحسب، ولكنّه– أيضاً – انتماء إلى مجال اجتماعي؛ بما فيه من عادات وتقاليد، فالمكان والأفراد الذين يتفاعلون معه، يمثّلون وحدة متكاملة، ينتمي إليها الشاعر، ويشعر في ظلّها بالألفة والحماية والأمان.

الكلمات المفتاحيّة : انتماء، مكان، علاقة.

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** مدرسة – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
*** طالبة دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (2)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (2) 2017

Belonging to the place in the introduction of the Omayyad poem

Dr. Adnan Ahmad*
Dr. Wahran Habib**
Boushra Mhanna***

(Received 17 / 10 / 2016. Accepted 19 / 3 / 2017)

□ ABSTRACT □

This research studies the idea of belonging to the place in the introduction of the Omayyad poem . Belonging is a relation that involves emergence and intermingling between the poet and the place . This denotes the special presence in the poet's self according to its different dimensions . The relation of belonging has different aspect and images in the Omayyad poetry , some of which the introductions of the poems that have been , the embodiment of the poet's experiences such as hope, departure and the obssession of returning , etc. because the special belonging is not only a natural one but it is also a social one with its values , customs and traditions . Individuals and the place the interact with it form one unity which the poet belongs to and feels safety , protection and intimacy in it .

Key words : Belonging , Place , Relation

*Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
** Assistant professor , Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
***Postgraduate student, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدّمة:

ارتبط المكان في الشعر دائما بالفعل البشريّ؛ لذلك فهو لا يبرز معزولا، جامدا، وإنما يبرز حيزاً للتجربة الإنسانيّة، فيحمل مواقف وخلجات وانفعالات الكائن الإنساني. والمكان من هذا المنظور هو انفتاح للذاكرة على أزمنة أخرى، وانفتاح للنفس على مشاعر متنوعة؛ منها التعلّق بالمكان/الوطن، والحنين والاشتياق إليه، وما يتركه من أثر في تكوين الشاعر العضوي، وعاداته وتقاليده، ولغته وفكره وخياله، حتى إنّه يسهم في تشكيل وصياغة جانب من جوانب القيم لديه، وفي كلّ ما يمتّ له بصلة في حياته.

أهميّة البحث وأهدافه:

جاء هذا البحث محاولة للكشف عن ماهية الانتماء إلى المكان في مقدّمة القصيدة الأمويّة، بغية تلمّس عالم الشاعر الداخلي، وطريقة تفكيره، وملامح نفسيّته في ضوء التّغيّرات التي عرفها العصر الأمويّ.

وتأتي أهميّة البحث من كونه جديداً في دراسته علاقة الانتماء إلى المكان في مقدّمة القصيدة الأمويّة؛ ذلك أن علاقة الشاعر بالمكان ليست علاقة بسيطة، بل معقدة؛ تنطوي على جوانب شتّى، تبعا للوضع النفسي والعاطفي والفكري الذي يعاني منه، بالإضافة إلى المكان نفسه، وما يثيره من مشاعر وأحاسيس.

منهجيّة البحث:

لقد اختار البحث الدراسة النصيّة طريقا للوصول إلى غايته، ويؤازرها في ذلك المنهج الاجتماعي الذي رأت أنه لا غنى عنه في سبيل ذلك.

الدراسة:

برزت ظاهرة الانتماء إلى المكان/ الوطن في الشعر العربي القديم منذ العصر الجاهلي، فكان التصاق الشاعر بالمكان الذي ولد فيه، وترعرع، بما فيه من ذكريات للقوم والأهل و الخلان...الخ. كما زاحم الانتماء المكاني الانتماء النسبي؛ ذلك أن ارتباط العربي بأرضه ارتباط عضوي، ولّد لديه انتماء أصيلا وعميقا إلى المكان؛ يدفعه إلى حمايته، وتطويره، والاعتداد به، "وحين جاء الإسلام كانت الجزيرة العربية بحدودها الطبيعية مأهولة بالعرب ومهيأة، لتكون وطنا يتوحّدون فوق ترابه، وينتمون إليه" [1]. وفي العصر الأمويّ تأصّلت ظاهرة الانتماء إلى المكان/الوطن، وتعمّقت حين ارتبطت بالتعاليم والمبادئ التي أتى بها الدين الإسلامي، يضاف إلى ذلك العادات والتقاليد العربية، فكانت علاقة الانتماء إلى المكان ظاهرة واضحة في الشعر الأمويّ، وقد تمثّلت في مقدّمة القصيدة الأمويّة من خلال المقدّمة الطلليّة، ومقدّمة الطيف والمقدّمة الغزليّة.

1- الانتماء إلى المكان في المقدّمة الطلليّة:

تعدّ المقدّمة الطلليّة صورة من صور الانتماء؛ ذلك أنها تعبّر عن النزوع إلى المكان، وما يحوي من أهل وأحبّة وصحب، وما يرتبط به من ذكريات مختلفة. وربّما كان استمرار وقوف الأمويّين على الأطلال تعبيرا عن تمسكهم بانتمائهم إلى أصولهم وجذورهم في أرض الجزيرة العربية، بعد استيطانهم المدن، ولعلّهم " يريدون بذلك العودة إلى الأصول الأولى التي عاشها آباؤهم في الجزيرة العربية، قبل أن ينتقلوا إلى المدن، وكأنّهم بهذا الحنين يخلقون نوعا من

[1]. فاروق أحمد اسليم. *الانتماء في الشعر الجاهلي*(اتحاد الكتاب العرب، 1998م)259.

الوصال مع جذورهم"[2]، فكانوا يخضعون لعاطفتهم القوية التي تربطهم بموطنهم الأول، فيبكون الأطلال، لأنها ترمز لذلك العالم المفقود الذي يحاولون التشبّث به قدر استطاعتهم، على الرغم من أن حرصهم على الوقوف على الأطلال، كان التزاما بتقاليد القصيدة العربية التقليدية، كما تحدّد شكلها في العصر الجاهلي؛ يشترك في ذلك معظم شعراء العصر الأمويّ، حتّى أولئك الذين عاشوا منهم في المدن، فمع بداية الفتوح الإسلامية بدأ العرب بتخطيط المدن الجديدة كالكوفة والبصرة، واستوطنوا فيها، كما سكنوا في المدن القديمة في بلاد الشام، فانقلب الفاتحون البداة إلى سكان مدن، يتملّكون الأرض ويعمرون المنازل، ويعيشون عيشة استقرار نسبيّة في تلك الأوطان لذلك لم يعد الوقوف على الأطلال وقوفا حقيقيا، بل أصبح الشاعر يتصوّر أطلالا، ليبكي عليها، ويعبّر من خلالها عن نزوعه إلى موطنه الأول في الجزيرة العربية؛ إذ يعمد إلى وصف الديار والمنازل، فيذكر ما حلّ بها بعدما هجرها أصحابها، لينتقل إلى الحديث عن ذكريات مختلفة لها صلة بطفولته وشبابه، والمحبوبة التي فرّق الدهر بينه وبينها، على نحو ما نرى في قول الأخطل[3]:

لِمَنِ الدِّيــارُ، بحائِـلٍ، فَوُعـالِ — دَرَسَتْ وغَيّـرَهَا سِنُونَ خوالي
دَرَجَ البَوارِحُ فَوْقَهَــا، فَتَنَكَّـرَتْ، — بَعدَ الأنِيسِ مَعـارِفُ الأطـلالِ
فكأَنَّما هِيَ، مِنْ تَقادُمِ عَهْدِهـا، — وَرَقٌ نُشِرْنَ مِنَ الكتابِ بَوالِي
دِمَنٌ تُذَعْذِعُهـا الرِّيـاحُ، وتـارَةً — تُسْقَى بِمُرْتَجِزِ السَّحابِ، ثِقـالِ
دارٌ تَبَدَّلَـتِ النَّعـامَ، بأهلِهـا، — وصِـوارَ كُـلِّ مُلَمَّــعٍ، ذَيَّـالِ
أُدْمٌ مُخـدَّمَــةُ السَّـوادِ، كأنَّهـا — خَيلٌ، هَوامِلُ بِتنَ في الأجـلالِ
تَرْعَى بَحازِجُها، خِلالَ رِياضِهـا، — وتَمِيسُ، بَيْنَ سَباسِبٍ ورِمــالِ

كما أنّ عدي بن الرقاع العاملي وقف على الأطلال في معظم قصائده، على الرغم من أنّه من حاضرة الشام، ومنزله بدمشق، على نحو ما نرى في مقدّمة إحدى قصائده[4]:

---

[2] . أحمد دواليبي. *مظاهر الغربة النفسية في الشعر العربي في العصرين الإسلامي و الأموي* (مخطوط أطروحة دكتوراه ، جامعة حلب،2000م). ص105.

[3] . الأخطل. *الديوان* (دمشق: دار الفكر، 1996م) 108- 109.حائل: موضع باليمامة لبني نمير من بني كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم، وقيل حائل من أرض اليمامة لبني قشير، وهو واد أصله من الدهناء، وقيل أيضا: حائل موضع بين أرض اليمامة وبلاد باهلة، أرض واسعة قريبة من سوقة، وهي قارة هناك معروفة، وحائل أيضا: ماء في بطن المروت من أرض يربوع. وعال: جبل بسمارة كلب بين الكوفة والشام. *معجم البلدان*(بيروت: دار صادر، 1977م) 2/210،5/379. درج: جرى جريا شديدا. البوارح: الرياح التي تحمل التراب في شدة الهبوب، مفردها بارح. تنكّرت: تغيرت، وأصبحت مجهولة. المعارف: جمع معرّف، وهو المعروف. درست: امحت وعفا أثرها. الخوالي: جمع خالية، وهي الماضية. نشر: نثر وبثّ. البوالي: جمع بالية. الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الناس وما سوّدوا. تذعذع: تفرّق. المرتجز: الراعد. الثقال: المثقل البطيء المشي لكثرة ما فيه من الماء. الصوّار: جماعة البقر الوحشي. الملمع: الثور الوحشي في جسده بقع تخالف سائر لونه. الذيّال: الطويل الذيل. الأدم: البيض، مفردها أدماء. المخدّمة السواد: التي في أرساغها سواد. الهوامل: جمع هامل، وهي المهملة. الأجلال: جمع جل، وهو ما تلبسه الدابة لتصان. البحازج: جمع بحزج، وهو ولد البقر. تميس: تتبختر في مشيتها. السباسب: جمع سبسب، وهو الأرض القفر المستوية.

[4] . عدي بن الرقاع العاملي. *الديوان* (مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1987م) 82. الأبلاد: الآثار، واحدها بلد. الرواسي: الأثافي. شبيكة: تصغير شبكة، وهو مكان كثير الآبار يقرب بعضها من بعض وتكون قريبة القعور. التلعة: مسيل م ا ارتفع من الأرض إلى بطن الوادي.

عَرَفَ الديـارَ توهُمــاً فاعتادَهــا ... من بعدِ ما شَمِلَ البِلــى أبلادَهــا
إلاّ رواســيَ كلُّهُــنَّ قد اصطلــى ... حَمْراءَ أَشْعَــلَ أهلُهــا إيقادَهــا
كانــتْ رواحِــلَ للقــدورِ فعُرِّيَــتْ ... منهنّ واستلبَ الزمــانُ رَمادَهــا
بشُبَيْكَــةِ الحَــوَرِ التي غَرْبِيُّهــا ... فَقَدَتْ رســومُ حياضِــهِ ورَّادَهــا
وتنكــرتْ كــلَّ التنكُّــرِ بعــدَنــا ... والأرضُ تعرفُ تَلْعَهــا وجَمادَهــا

وفعل الأمر ذاته الطّرماح أيضا، مع أنه عاش في الكوفة، ومات فيها، إذ يقول[5]:

يَا دَارُ أَقْــوَتْ بَعْدَ أَصْرَامِهــا ... عَاماً، ومَا يُبْكِيْكَ مِنْ عَامِهــا
هَلْ غَيْرُ دَارٍ بَكَــرَتْ رِيحُهــا ... تَسْتَنُّ فــي جَائِــلِ رَمْرَامِهــا
فِيها لِوِلْــدَانِ الصِّبَــا مَلْعَــبٌ ... كَــأَنّــمَــا آثَــارُ أَقْــدَامِــهــــا
صَحِيفَــةٌ رَقَّــشَهــا كَــاتِــبٌ ... لَمْ يَتــقَــادَمْ عَهْــدُ أَقْلَامِهــا
قِفْ صَاحِبِي أَقْضِ بِهَا لَوْعَةً ... .. عَنَانــي بَعْــضُ أَسْقَامِهــا
أَسْتَخْفِها إِذْ نَحْنُ فِيهــا مَعــاً ... عَنْ بَعْــضِ أَيَّامِــي وأَيَّامِهــا

فالطلل مثّل الهويّة للشاعر العربي، وهو المادّة الفنيّة الخصبة لخلق خياله، لذلك أكثر شعراء العصر الأمويّ من الوقوف عليه، كأنّهم من الجاهليين الذين أمضوا حياتهم في بوادي الجزيرة العربية؛ فبقيت العناصر التقليديّة على حالها في تصوير أماكن السكن مع بقاياها في العصر الأمويّ؛ في كونها مقفرة، غير معروفة، غير مسكونة، أماكن سكن الحيوانات والطيور، تغيّرت بفعل عوامل الطبيعة و الزمن، بقاياها شبيهة ببقايا الوشم في ظاهر اليد، وبآثار القلم على الورق و...الخ، وإن كان الأمويّون قد ابتدعوا بعض التشبيهات والصور، بالإضافة إلى دخول بعض العناصر الدينية الإسلامية الجديدة في بعض الأحيان؛ كأن يدعو الشاعر لرفيقيه أن ينالا رضوان الله، أو أن يظلّهما الله بظله يوم القيامة...الخ.

وإذا كان وقوف الأمويّين على الأطلال في مقدّمات قصائدهم مجرّد تقليد فني نسجوا على منواله بصفته المثال المحتذى، فهذا لا يعني أن تلك المقدّمات قد خلت من الأحاسيس الإنسانية، وخصوصا لدى شعراء البادية الذين حافظوا على كثير من تقاليدهم وعاداتهم الأصيلة في العصر الأمويّ، فربّما اختلطت مشاعرهم الصادقة تجاه الديار في بعض الأحيان بالمشاعر التي أضحت ممثّلة بالتقليد الفني للقصيدة العربية منذ العصر الجاهلي، فيكون وقوف الشاعر على الطلل استلهاما لتقليد فني يقتنع به؛ لأنه يمسّ طبيعة حياته، فيستجيب الشاعر لهذا التقليد كما يستجيب هذ التقليد لمتطلبات الشاعر النفسية، على نحو ما نرى لدى ذي الرمة الذي كان يذكر في مقدّماته الطلليّة المواضع التي كان ينزل بها، وشهدت أحداث حياته، وهي مواضع تقع بالدهناء التي كان يكثر السفر في بواديها. يقول في إحدى مقدّماته الطلليّة[6]:

---

[5] . الطّرماح. *الديوان* (دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث العربي، 1968م) 439-440. أقوت: خلت. الأصرام: جمع صرم، وهم الجماعة من الناس. تستن: تجري وتسرع. الرمرام: حشيش الربيع. جائله: اليابس منه الذي تجول فيه الريح. الأسقام: الآلام و الأوجاع، واحدها سقم.

[6] . ذو الرمة. *الديوان* (بيروت: مؤسسة الإيمان للتوزيع والنشر والطباعة، 1982م)1/ 456-460. حزوى: موضع بنجد في ديار تميم، وقيل جبل من جبال الدهناء، وقيل حزوى باليمامة، وهي قرية بحذاء قرية بني سدوس ، و قيل أيضا: حزوى من رمال الدهناء . *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، 1977م)255/2. ماء الهوى: الدمع الذي يدمعه الهوى. يرفضّ: يسيل متفرقا. يترقرق: يجيء ويذهب في العين من غير أن يتحدّر. كمستعبري: كاستعباري، ويقال لقد أسرعت استعبارك الدراهم أي استخراجك. وعساء: رابية من الرمل. تنصوها:

أداراً بحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً فَمَاءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ
كَمُسْتَعْبَرِي في رَسْمِ دَارٍ كَأَنَّهَا بوَعْسَاءَ تَنْصُوها الجَماهِيرُ مُهْرَقُ
وَقَفْنَا فَسَلَّمْنَا فَكَادَتْ بِمُشْرِفٍ لِعِرْفَانِ صَوْتِي دِمْنَةُ الدَّارِ تَنْطِقُ
تَجِيشُ إليَّ النَّفْسُ في كُلِّ مَنْزِلٍ لِمَيٍّ وَيَرْتَاعُ الفُؤَادُ المُشَوَّقُ
ألا ظَعَنَتْ مَيٌّ فَهَاتِيكَ دَارُهَا بها السُّحْمُ تَرْدِي والحَمامُ المُطَوَّقُ
أربَّتْ عَلَيْهَا كُلُّ هَوْجَاءَ رَادَةٍ زَجُولٍ بِجَوْلانِ الحَصَى حِينَ تَسْحَقُ
لَعَمْرُكَ إنِّي يَوْمَ جَرْعَاءِ مالِكٍ لَذُو عَبْرةٍ كُلاً تَفيضُ وَتخنُقُ
وَإنْسَانُ عَينِي يَحْسِرُ الماءَ تَارةً فَيَبْدُو، وتَارَاتٍ يَجُمُّ فيَغْرَقُ

يبدأ الشاعر أبياته بالبكاء لفقدانه دياره، وما يرتبط بها من أسباب سعادته، وتحوّلها إلى أطلال دارسة؛ تستدعي ذكرياته التي تدفعه إلى التحسّر على تلك السعادة المفقودة؛ ذلك أنّ الوقوف على الأطلال هو حالة شعوريّة مرتبطة بالحرمان دائما، بغض النظر عن نوع الذكرى التي يثيرها الطلل.

وقد كان حدث الارتحال عن الديار مثيرا مشاعر الحزن والألم في نفس الشاعر؛ ذلك أنّه يؤّدي إلى انقطاع بعض العلاقات الإنسانية الدافئة، وبارتحال الشاعر عن المكان لا تنقطع صلته به انقطاعا تاما؛ إذ إنّ إقامته به قد تركت في نفسه ذكريات تُشعل في نفسه دائما نيران الشوق إلى أنس ذلك المكان الذي غدا خلاء، ليس فيه من أنيس إلا الطيور التي تأتي و تروح فيه، دون أن تخشى أحدا.

ويطيل ذو الرمة في مقدّمة إحدى قصائده المدحية الوقوف على الطلل، حتى شُغل به، و بوصف الناقة عن مدح الخليفة، ما يشير إلى أن تعلّقه بالبيئة التي يعيش فيها، كان يطغى على كل أمر آخر في حياته، إذ يقول[7]:

ألا أيُّهَذَا المَنْزِلُ الدَّارِسُ اسْلَمِ وَأُسْقِيتَ صَوْبَ البَاكِرِ المُتَغَيِّمِ
وَلَازِلْتَ مَسْنُوًّا تُرَابُكَ تَسْتَقِي عَزَالِيَ بَرَّاقٍ العَوَارِضِ مُرْزَمِ
وَإنْ كُنْتَ قَدْ هَيَّجْتَ لي دُونَ صُحْبَتِي رَجيعَ هوىً مِنْ ذِكْرِ ميَّةَ مُسْقِمِ
هوىً كَادَتِ العَيْنَانِ يَفْرُطُ مِنْهُمَا لَهٌ سَنَنٌ مِثْلُ الجُمَانِ المُنَظَّمِ
وَمَاذا يَهِيجُ الشَّوقَ مِنْ رَسمِ دِمْنَةٍ عَفَتْ غَيْرَ مِثْلِ الحِمْيَرِيِّ المُسَهَّمِ
أرَبَّتْ بِهَا الأمْطَارُ حَتَّى كَأَنَّهَا كِتَابُ زَبورٍ في مَهارِيقِ مُعْجَمِ

تتصل بها. الجماهير: واحدها جمهور، وهو العظيم من الرمل. مهرق: شيء كان يكتب فيه. مشرف: هو رمل بالدهناء . معجم *البلدان* (بيروت: دار صادر، 1977م) 132/5. دمنة: آثار الناس وما سوّدوا ولطخوا. تجيش: تفور وتثور وترتفع وتغشى من الفزع. السحم: الغربان. أربّت: أقامت. هوجاء: ريح مختلطة الهبوب. رادّة: ترود تركب رأسها. زجول: ترمي بالحصى. تسحق: تمر بالحصى. تخنق: تأخذ بالحلق. جرعاء: رابية من الرمل سهلة.

[7] . ذو الرمة. *الديوان* (بيروت: مؤسسة الإيمان للتوزيع والنشر والطباعة، 1982م)2/1167-1170.الباكر المتغيّم: المطر. مسنوا: ممطورا، والسانية البعير الذي يستقي الماء. العزالي: أفواه المزاد و القرب، فصيّره الشاعر للسحاب. العوارض: جمع عارض ، وهو السحاب. مرزم: من صوت الرعد. يفرط: يسبق. سنن: دمع. الجمان: لؤلؤ من فضة. الحميري: ثوب يماني. مسهّم: موشّى. أربّت: أقامت. المهاريق: الصحف، واحدها مهرق. معجم: لا يفصح. النؤوج: الريح الشديدة المرّ. ينبري: يعترض. من جنوبها: من نواحيها. بتسهاك ذيل: من السهوكة، يقال سهكت الريح التراب إذا قشرته عن الأرض أي أطارته، وذيل الريح هو مؤخرها وما تجرّ. متنم: اثنان. ذبلة: بعرة يابسة. ترسم: من الرسيم، وهو ضرب من السير.

وَكُـلُّ نَــؤُوجٍ يَنْبَـرِي مِـنْ جُنُـوبِهـا بِتَسْهَـاكِ ذَيْــلٍ مِنْ فُــرادى ومُثْنِــمِ
تُـثِيـرُ عَلَيْهِــا التُّــرْبَ أو كُــلَّ ذَبْلَــةٍ دَرُوجٍ متى تَعْصِفْ بِهَا الرّيحُ تَرْسُمِ

فالشاعر يخاطب ديار قومه (ألا أيّهذا المنزلُ الدارسُ)، ويدعو لها بالسقيا، ويستعيد ذكرياته فيها، فيبكي بكاء حارّا، لتختلط عبراته بأنّاته وذكرياته ما يبيّن مدى الارتباط النفسي بها؛ ذلك أنّ تلك الديار لا تمثّل مكانا جغرافيا وحسب، وإنّما تمثّل –أيضا–الجماعة البشرية التي تقيم بهذا المكان، بما يحكمها من قيم اجتماعيّة وأخلاقيّة، وبما يجمع بين أفرادها من وحدة الهموم والأفراح والآلام والآمال، وقد أتت على تلك الجماعة عوامل الطبيعة القاسية، ففعلت فعلها في تبديد إرادة الاستقرار لديها، وأكرهتها على الرحيل، وحوّلت هذا الوطن الجميل إلى رسوم دارسة، لذلك نجد الشاعر يحرص على ذكر عوامل الطبيعة التي فرّقت الجماعة، وحرمتهم الأمن والطمأنينة، ولعلّ دمار الوطن، وفقدان الأهل والأحبة، هو معادل فني لحالة العقم والجدب في بيئة الشاعر.

وعلى الرغم مما يثيره الطلل من آلام في نفس الشاعر من حيث ارتباطه بالجماعة البشرية التي أقامت به، ثم اضطرت إلى الرحيل عنه، فإنّ هذا الطلل لم يستطع أن يرغم الشاعر على الاستسلام للواقع المؤلم الذي أمامه، بل إنّه ينفذ من هذا الصمت الموحش، باتجاه نقلة تقوم على الفعل والحركة؛ حين يتابع حركة الظباء وقطعان البقر الوحشي، وكأنّه يريد أن يؤكّد استمرار الحياة في هذا المكان، فيشبّه البقرات بالخيول السوداء التي غُطيت أجسامها بثياب بيضاء، ورؤوسها ببراقع من اللون نفسه، تُركت فيها ثقوب، ظهرت منها خدودها السوداء، وهي صورة تضفي كثيرا من الحيوية والجمال على هذا المشهد المكاني، إذ يقول[8]:

أَمنــزِلَتَــيْ مَــيٍّ سَــلَامٌ عَلَيْكُمَــا هَلِ الأَزْمُنُ اللَّائي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ
تَوَهَّمْتُهَــا يَوْمــاً فَقُلْــتُ لِصَاحِبــي وَلَيْسَ بِهَا إلاَّ الظِّبَاءُ الخَوَاضِــعُ
وَمَوْشِيَّةٌ سُحْمُ الصَّياصِــي كَأَنَّها مُجَلَّلَــةٌ حُــوٌّ عَلَيْهَــا البَـراقِــعُ
حَرُونِيَّةُ الأَنسَابِ أو أَعْــوَجِيَّــةٌ عَلَيْهَا منَ القِهْزِ المُلاءُ النَّواصِــعُ
تَجَوَّبْنَ مِنْهَا عَنْ خُدُودٍ وَشَـمَّـرَتْ أَسَافِلُهَا عَنْ حَيْثُ كَانَ المَــذارِعُ

لقد أشاع الشاعر حيويّة الوجود في هذا المكان الذي لم يبق منه إلا الآثار، في محاولة للتشبّث بالحياة، وإن كان وجود الظّباء وقطعان البقر الوحشيّ دليلا حاسما على هزيمة الوجود الإنساني؛ فهو يشعر بانتمائه إلى هذا المكان، ولا يتقبّل فكرة عفائه بشكل كلي.

ويطلب الشاعر البدوي الصّمة القشيري من صاحبيه أن يعوجا على الديار الدارسة، للتسليم عليها، واستعادة الذكريات الماضية، قبل أن يفقد فيها الإنسان والمكان معا، إذ يقول[9]:

---

[8] . ذو الرمة. *الديوان* (بيروت: مؤسسة الإيمان للتوزيع والنشر والطباعة، 1982م) 2/ 1273–1277. موشية: يعني بقرا في قوائمها خطوط. السحم: الأسود، وسحم الصياصي: سود القرون. المجلّلة: التي كان عليها جلالا سودا. الحوة: حمرة في سواد. حرونية: فرس كان لباهلة. أعوجية: فرس كان لغني. القهز: القز. الملاء النواصع: البيض. تجوّبن: انكشفن. شمّرت: ارتفعت. المذارع: القوائم.

[9]. الصمة القشيري. *شعره ضمن كتاب "الصمة بن عبد الله القشيري حياته و شعره"* (عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2003م) 106–107. عوجا: من عاج، إذا مرّ في طريقه بالمكان فأقام عنده قليلا. رسوم الدار: ما كان من آثارها لاصقا بالأرض. القبيبة: واحده القبيبات: وهو محلة ببغداد وماء في منازل بني تميم وموضع بالحجاز. *معجم البلدان*(بيروت: دار صادر، 1977م)4/ 308. المكان البلقع: الخالي المهجور. أربّت: دامت. الأرواح: جمع ريح. تنسّفت: انتسفت الريح الشيء، كأنها سلبته معالمه. المعارف: المعالم. الصفيح الموضّع: الحجارة العريضة المتكسرة المتناثرة هنا وهناك. الرقاشان: عمودان طويلان من الهضب . *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)56/3. أسبلتا: انهلتا بالدمع المتواصل.

خَلِيلَيَّ عُوْجا مِنْكُما اليَـوْمَ أوْدَعـا نُحَـيِّ رُسـومـاً بِالقُبَيْـبَـةِ بَلْقَـعـا
أَرَبَّتْ بِها الأرْواحُ حَتَّـى تَنَسَّـفَـتْ مَعارِفُهـا، إلاَّ الصّـفيـحُ المُوْضَّعـا
وَغَيْـرَ ثَـلاثٍ في الدِّيـارِ كَأَنَّـهـا ثَـلاثُ حمـامـاتٍ تَقَـابَلْـنَ وُقَّعـا
أَمِنْ أَجْلِ دارٍ بالرَّقّاشَـيْنِ أعْصَفَـتْ علَيْها رياحُ الصَّيـفِ بَدْءاً وَرُجَّعـا
بَكَتْ عَيْنُكَ اليُسْرى، فَلَمَّا زَجَرْتَهـا عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ، أسْبَلَتَا معَـا
وَلَـمْ أَرَ مِثْـلَ العـامِريَّـةِ قَبْلَهـا وَلَا بَعْدَهـا يَـوْمَ ارْتَحَلْنَـا مُـوَدَّعَـا

فهذا المكان جزء من ذات الشاعر اهتدى إليه على الرغم من عوامل الزمن والطبيعة، وكأنّه يبحث عن رائحة الجذور الأولى، وقد راعه ما شاهده من خراب ودمار، لتتراءى له في آثار الديار وبقاياها ملامح من الحياة الماضية في المكان الذي كان يشكّل الوطن؛ ذلك أن الوقوف على تلك الأطلال الدارسة يستثير ذكريات عن العلاقات الإنسانية الماضية، ومن هنا يكون البكاء حزنا على غياب الإنسان الذي لم يتبق منه غير ما علق بالذاكرة والوجدان من حضور تستثيره تلك الديار الدارسة، وعلى نحو ما يرى يوسف اليوسف فإن هذه القصيدة خير قصيدة عذريّة استطاعت أن تدغم حس المكان والزمان بحس المرأة أو العشق المزجور؛ ذلك أن الشاعر في هذه القصيدة يعاني من الخوف من اجتثاث الجذور، ومن الانبتات عن شيئين: وتيرة حياته المطمئنة(الماضي)، والمكان المألوف[10].

2- الانتماء إلى المكان في مقدّمة الطّيف والمقدّمة الغزليّة:

وإذا انتقلنا إلى مقدّمة الطّيف والمقدّمة الغزليّة في قصائد الأمويّين، فإنّنا نرى في أغلب مقدّمات قصائد المديح معاني الانتماء إلى الوطن مقنّعة بقناع الطيف حينا، و قناع الغزل حينا آخر؛ إذ يحضر الوطن في ذهن الشاعر ووجدانه، عند ابتعاده عنه، مصاحبا لحس الحنين والاشتياق إليه، و"الحنين صورة زاهية من صور العشق، ولكنه لا يتجه إلى الأنثى، بل يتجه إلى أرض غالية عزيزة بكل ما فيها ومن فيها" [11]. وقد كان يثير مشاعر الحنين في نفوس الشعراء أمور كثيرة كالبروق حينا، والنار البعيدة حينا، ونجوم الجزيرة العربية حينا ثالثا، وبكاء الحمام و...الخ . وربما استأثرت مقدّمات قصائد المدح بتلك المعاني لاستمالة الممدوح، والحصول على العطايا والأموال، وذلك في سبيل تحسين الظروف المادية من أجل تنمية إمكانات الاستقرار، والحياة الرغيدة في الوطن.

فأغلب مقدّمات مدائح الفرزدق في سليمان بن عبد الملك تتدفّق بعواطفه ومشاعره الجيّاشة تجاه الديار، على نحو ما نرى في مقدّمة الطّيف التي استهلّ بها مدحته الرائية في سليمان بن عبد الملك؛ إذ يقول[12]:

طَرَقَتْ نَوَارُ وَدُونَ مَطْرَقِهَـا جَذْبُ الْبُـرَى لِنَوَاحِـلٍ صُعْـرِ
وَرَوَاحُ مُعْصِفَةٍ وَغَدْوَتُهَـا، شَهْـراً، تُوَاصِلُـهُ إلى شَهْـرِ
أَدْنَـى مَنَازِلِهَـا لِطَالِبِهَـا خِمْسُ المُؤوِّبِ للقَطَا الْكُـدْرِ
وَإِذَا أَنَـامُ، أَلَـمَّ طَـائِفُهَـا حَتَـى يُنَبِّـهَ أَعْيُـنَ السَّفْـرِ
إنـي يُهَيّجُنَـي، إذا ذُكِـرَتْ رِيحُ الْجَنُوبِ لَهَا عَلَى الذِّكْرِ

---

[10] . يوسف اليوسف. *الغزل العذري "دراسة في الحب المقموع"*(دار الحقائق، 1982م)43.

[11] . وهب رومية. *قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد* (دمشق: منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، 1981م) 525.

[12] . الفرزدق. *الديوان* (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م)230. البرى: الواحدة برة، وهي حلقة توضع في أنف البعير. الصعر: المائلة خدودها من جذب الأزمّة. الرواح: السير في أول الليل. المعصفة: الرياح العاصفة. المؤوب: السائر طيلة النهار. الخمس: وهي أظماء الإبل، أي أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع.

لقد رحل الفرزدق إلى الشام/ مكان الممدوح، فابتعد عن العراق/ الوطن، وعانى شدّة الشوق والحنين إليه، وعلى نحو ما يرى الدكتور وهب رومية؛ فليست نوّار حبيبة الشاعر إلا صورة من العراق ومن في العراق، وليست هذه المسافات الطويلة التي تحجز بينه وبين منازل الحبيبة سوى صورة من المسافات التي تفصل بين الشام والعراق [13]؛ فقد تحوّل العراق بتأثير من عواطف الشاعر الجيّاشة تجاه وطنه من الإطار الجغرافي المحدود، ليتخذ صفات إنسان /الحبيبة نوار التي يذكرها، ويحنّ إليها كلما هبّت ريح الجنوب، أو فاه باسمها أحد، فتختلط صورة الوطن بصورة الحبيبة. وعلى الرغم من كل ما تحمله هذه المقدّمة من مفردات حديث الطيف، فإن الشاعر يعني بالحبيبة نوار التي يزوره طيفها في غربته وطنه العراق؛ حيث مدارج طفولته ومراتع صباه، وحيث أهله و أحبابه. لينعكس الوطن في رمز إنساني؛ يمثل العشق و الحب، ما يكشف عن عشق الشاعر لوطنه الغائب، وهيامه به؛ "فالشعور يظل مبهما في نفس الشاعر، فلا يتضح إلا بعد أن يتشكل في صورة. ولا بدّ أن يكون للشعراء قدرة فائقة على التصوّر تجعلهم قادرين على استكناه مشاعرهم واستجلائها"[14].

ويعبّر الفرزدق عن تعلّقه بالديار بشكل واضح في مقدّمة إحدى قصائده المدحيّة؛ إذ طغت مشاعر الحنين والاشتياق إلى الديار على كل المعاني الأخرى في مقدّمته الغزليّة، على نحو ما نرى في قوله[15]:

لَوَى ابْنُ أَبي الرَّقْرَاقِ عَيْنَيْهِ بَعدما	**دَنَا مِــنْ أَعَالــي إيلِيَــاءَ وَغَــوَّرَا**
رَجَا أَنْ يَرَى مَــا أَهْلُــهُ يُبْصِرُونَــهُ	**سُهَيْلاً، فَقَدْ وَارَاهُ أَجْبَــالُ أَعْفَــرَا**
فَكُنَّا نَرَى النَّجْــمَ الْيَمَانــيَّ عِنْدَنَــا	**سُهَيْلاً فَحَالَتْ دُونَهُ أَرْضُ حِمْيَــرَا**
وَكُــنَّــا بِــهِ مُسْتَأْنِسِــيــنَ كَــأَنَّــهُ	**أَخٌ أَوْ خَلِيطٌ عَــنْ خَلِيــطٍ تَغَيَّــرِا**
بَكَى أَنْ تَغَنَّتْ فَوْقَ سَاقٍ حَمَامــةٌ	**شَــآمِيّــةٌ هَاجَــتْ لَــهُ فَتَــذَكَّــرَا**
مَخَابِيءَ حُبٍّ مِنْ حُمَيْدَةَ لَمْ يَزَلْ	**بِهِ سَقَمٌ، مِــــنْ حُبِّهــا، إِذْ تَــأَزَّرَا**
.....	.....
فَمَا كُنْتُ عَن نَفْسِي لأَرْحَلَ طائعاً	**إلى الشَّأمِ حتى كُنْتَ أَنْتَ المُؤَمَّرَا**

لقد بقي وطن الشاعر العراق يجتذبه و يشدّه إليه، على الرغم من نزوله عند الخليفة سليمان بن عبد الملك في الشام، ذلك أنّ كل مناطق الألفة موسومة بالجاذبية على حد تعبير باشلار [16]، حتّى إنّ ابن أبي الرقراق صاحب الفرزدق، ليس سوى صورة من الفرزدق، أو مرآة تنعكس فيها أشواق الشاعر وآلامه على حد تعبير الدكتور وهب رومية[17]. وقد استخدم الشاعر صيغة (ما أَهْلُهُ يُبْصِرُونَهُ) تعبيرا عن الحسرة والألم بسبب ابتعاده عن دياره؛ ذلك أنّ موطن الشاعر كان دائم المثول في وجدانه، مهما غاب عنه، وابتعد واقعيّا، لذلك لم يكن حضور الشاعر في

---

[13] . وهب رومية. *قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد* (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1981م) 542-543.

[14] . عزّ الدين اسماعيل. *التفسير النفسيّ للأدب* (بيروت: دار العودة ودار الثقافة) 72.

[15]. الفرزدق. *الديوان* (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م) 176-177. ابن أبي الرقراق: من دارم. إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس . *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)2/ 293. غوّر: نزل الغور، والغور هو الأرض المنخفضة. أعفر: موضع بعينه . *معجم البلدان*(بيروت: دار صادر، 1977م)222/1. الخليط: المخالط في الجوار والمرعى.

[16] . غاستون باشلار. *جماليات المكان*(المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، 2006م) 42.

[17] . وهب رومية. *قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد* (دمشق: منشورات وزارة الثقافة ودار الإرشاد القومي، 1981م) 545.

الشام/مكان الممدوح، سوى غياب عنه، بينما كان غيابه عن العراق/الوطن، حضورا دائما فيه، وإن استطاع الشاعر أن يحقّق شيئا من التواصل في الشام، بوساطة العامل الإنساني/ الممدوح؛ فقد كانت الشام مكانا بغيضا لدى الشاعر، إلا أنّه وجد فيه الطمأنينة والكرم والعطاء في ظل الممدوح، فيتبدّى لنا الصراع الداخلي في ذات الشاعر بين التعلق بالديار، واضطراره الرحيل إلى الممدوح في ظل الظروف الاقتصادية المترديّة التي عرفها العصر الأمويّ.

ويتّجه جرير بالغزل في مقدّمات مدائحه أيضا، إلى التعبير عن ارتباطه بموطنه، وما يتركه في نفسه من أحاسيس الحنين والشوق إليه عند الابتعاد عنه؛ فقد كانت الشام قبلة الشاعر، ينتقل إليها من قلب الجزيرة العربية موطن عشيرته، أومن العراق التي قضى فيها ردحا من الزمن، ليمدح الخلفاء الأمويّين، وينال عطاياهم، وفي ذلك يقول الدكتور وهب رومية:" غزل جرير مملوء بالحنين حتى يوشك أن يكون شعر حنين لا علاقة له بالغزل في مواطن جمّة منه، ونحن نلاحظ أن المقدّمات الغزليّة التي يشعّ فيها الحنين ويتوهّج هي مقدّمات تلك المدائح التي قالها في الخلفاء الأمويّين وأبنائهم في دمشق بعيدا عن وطنه وأهله" [18]. على نحو ما نرى مقدّمة قصيدته المدحية في يزيد بن عبد الملك، إذ يقول[19]:

أرِقَ العُيُـونُ، فَنَـوْمُهُـنَّ غِـرَارُ، إذْ لا يُسَاعِفُ مِنْ هَوَاكِ مزارُ
هل تبصرُ النّقَوَيْنِ دونَ مُخفِّـقٍ أَمْ هلْ بدَتْ لكَ بالجُنَيْنَةِ نَارُ
طَرَقَتْ جُعَادَةُ واليَمَامَـةُ دونَهـا رَكْباً، تُرَجِّـمُ عنهـم الأَخْبـارُ
....
أَمْسَـتْ زِيارَتُنـا عَلَيْـكِ بَعِيـدَةً، فَسَقَى بِـلادَكِ دِيمَـةٌ مِـدْرَارُ
تُرْوِي الأَجَارِعَ والأَعَـازِلَ كُلَّهَـا، وَالنَّعْفَ حَيْثُ تَقَابَـلُ الأَحْجَـارُ
هَلْ حُلَّتِ الـوَدَّاءُ بَعْـدَ مَحَلّنَـا، أَوْ أَبْكُـرُ البَكَـرَاتِ أَوْ تِعْشَـارُ
أَوْ شُبْرُمَانُ يَهِيجُ مِنْكِ صَبَابَـةً، لَمّـا تَبَـدَّلَ سَـاكِـنٌ وَدِيَـارُ
وَعَرَفْتَ مُنْتَصَبَ الخِيَامِ على بِلًى وَعَرَفْـتَ حَيْـثُ تُرَبَّـطُ الأَمْهَـارُ

---

[18]. وهب رومية. *قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد* (دمشق: منشورات وزارة الثقافة ودار الإرشاد القومي، 1981م) 529.

[19] . جرير. *الديوان* (القاهرة: دار المعارف، 2006م) 2/640-643. أرق: سهر. غرار: قليل. النقوين: الواحد النقا، وهو كثيب من الرمل. الجنينة: روضة نجدية بين ضرية وحزن بني يربوع، وقيل صحراء باليمامة، والجنينة: ثني من التسرير، وهو واد من ضرية وأسفله حيث انتهت سيوله يسمى السر وأعلى التسرير ذو بحار، والجنينة قرب وادي القرى، والجنينة أيضا من منازل عقيق المدينة . معجم *البلدان* (بيروت: دار صادر، 1977م) 2/173. الطروق: الإتيان ليلا. جعادة: أصغر بناته. الركب: أصحاب الإبل. ترجّم عنهم الأخبار: تظن بهم الظنون. ديمة: مطر يدوم مع سكون. مدرار: غزيرة تدر بالمطر. الأجارع: الواحد أجرع، وهو الأرض ذات الرمل اللين. الأعزلان: واديان يقال لأحدهما الأعزل الريان، والآخر الأعزل ال ظمآن لأنه لا ماء به، وقيل هما واديان يقطعان أرض المروت في بلاد حن ظلة بن مالك. معجم *البلدان*(بيروت: دار صادر، 1977م)1/ 221. النعف: ما انحدر عن الجبل وارتفع من المسيل. الودّاء: هي من منازل بني تميم. معجم *ما استعجم*(بيروت: منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، 1998م) 4/205. الأبكر: أحجام ضخام أمثال البيوت. تعشار: هو موضع من بلاد بني تميم، وقيل هو جبل في بلاد بني ضبة، وقيل ماء لبني ضبة بنجد. شبرمان: واد في بلاد بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . معجم *ما استعجم* (بيروت : منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، 1998م) 1/ 283،62/3. الخيام: جمع خيمة، وهي أعواد تنصب وتجعل عليها عوارض وت ظلل بالثمام وغيره من الشجر وتستر جوانبها بالشجر، ويكون بينه خصاص، لتدخل الريح منه، يتخذونها في القيظ، وهي أبرد من الأخبية، ويتّخذها أهل النخل من السعف.

يبدأ جرير قصيدته المدحيّة بغزل عذب ورقيق على غرار ما نجده لدى العذريين؛ فيتّخذ منه قناعا للحديث عن تعلّقه بدياره، الذي بلغ حدّا جعله لا يطيق صبرا على البعد عنها، إذا ما اضطر إلى تركها ومغادرتها، ولو في سبيل الرحيل إلى الممدوح، للحصول على العطايا؛ فيذكر الطيف، وهو في بلاد بعيدة عن ديار قومه، ويطيل النظر إلى تلك الديار، ويدعو لها بالسقيا، وكأنه يريد تبريد كبده الحرّى ومشاعره الملتهبة، ويعمد إلى تكرار أسلوب الاستفهام(هل تبصرُ النّقَوَين، هلْ بَدَت لكَ بالجُنَيْنَةِ، هلْ حلّتِ الودّاءُ..) تعبيرا عن الحسرة بسبب ابتعاده عن وطنه/نجد الذي يشغل فؤاده، ولا تكاد صوره تفارقه. والشاعر في هذه اللوحة يرتبط ببيئته العربية أشد الارتباط؛ فيذكر النيران، والخيام، ومرابط الدواب، كما يعّدد مواضعها: (الجنينة، الأعزلان، الودّاء، تعشار، شبرمان)، وكأنّه يجد متعة ولذّة في ذكرها وتعدادها، وعن طريق هذه المفردات يرتمي في أحضان موطنه في نجد، مهد آبائه وأجداده، ومسرح ذكريات الطفولة و الصبا، ذلك أن "المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لامباليا. ذا أبعاد هندسية و حسب. فهو مكان عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيّز. إننا ننجذب نحوه لأنه يكثف الوجود في حدود تتسم بالحماية"[20].

كما اتّجه بعض شعراء الحجاز بمقدّمات مدائحهم إلى الحديث عن التعلّق بأرض الحجاز، فقد انتقل عبيد الله بن قيس الرقيّات في مقدّمة قصيدته المدحية في عبد العزيز بن مروان، من حديث الطيف إلى حديث البرق الذي أثار حنينه إلى الديار الحجازية، حيث تقيم قبيلته قريش، على نحو ما نرى في قوله[21] :

يَا مَنْ يَرى البَرْقَ بِالْحِجَازِ كمَا ... أقْبَسَ أيْدي الوَلائِـدِ الضَّرَمَا

لاحَ سَنَاهُ مِنْ نَخْلِ يَثْـرِبَ، فَالـ ... ـحَرَّةِ، حَـتَّى أضَـا لَنَا إضَمَا

أسْقَى بِهِ اللهُ بَطْنَ طَيـــبَةَ، فَالـ ... ـرَّوْحـاء فَالأخْشَبَيْنِ فالحَرَما

أرْضٌ بِـــها تَنْـبُتُ العَشِـيرَةُ قَدْ ... عِشْنا وكُنَّا مِنْ أهْلِـــها علَمَا

يدعو الشاعر لدياره بالسقيا من المطر من ثنايا تلك البروق الحجازية التي يراقبها، ويدعو الآخرين لمراقبتها، كي تعود أرض الخصوبة والعزة والرفعة، ويلتئم شمل قبيلته قريش في ربوعها، ما يكشف عن تعلّق حميم بالحجاز وساكنيه (أرضٌ بِها تَنبتُ العَشيرةُ)؛ ذلك أنّ من أهمّ مظاهر الانتماء إلى الوطن؛ تعلّق الشاعر بكينونة مجتمعه على الأرض، ممثّلا بالقبيلة، وهو ارتباط الجزء بالكل، وذوبان الفرد في المجتمع، ليغدو الشاعر في ذاته الفرديّة، جزءا من

---

[20] . غاستون باشلار. *جماليات المكان* (المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، 2006م) 31.

[21]. عبيد الله بن قيس الرقيّات. *الديوان* (بيروت: دار صادر)151. أقبس: أوقد. إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة، وقيل ذو إضم جوف هناك به ماء، وقيل إضم واد بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة، وقيل إضم واد يشق الحجاز حتى يفرغ إلى البحر، وقيل إضم واد لأشجع وجهينة، وإضم أيضا جبل بين اليمامة وضرية، وقيل ذو إضم ماء بين مكة واليمامة عند السمينة يطؤه الحاج. طيبة: اسم لمدينة رسول الله . *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)1/214-215، 54/4. الروحاء: قرية جامعة لمزينة على ليلتين من المدينة، بينهما أحد وأربعون ميلا . *معجم ما استعجم* (بيروت : منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، 1998م)272/2 . الأخشبان: تثنية الأخشب، والأخشبان جبلان يضافان تارة إلى مكة، وتارة إلى منى، وهما واحد أحدهما أبو قبيس، والآخر قعيقعان، ويقال بل هما أبو قبيس والجبل الأحمر المشرف هنالك، ويسميان الجبجبين أيضا . *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)122/1.

كيان أكبر هو الجماعة، تكون موئله في الشدّة والرخاء، يحتمي بها، و يسعى إلى التضحية في سبيلها. ويعبّر الأحوص عن انتمائه إلى أرض الحجاز أيضا، على نحو ما نرى في قوله[22]:

أَقُــولُ بِعَمــّانٍ وهَــلْ طَـرَبِــي بــه إلى أَهْلِ سَلْعٍ إنْ تَشَـوَّقْتُ نافِـعُ
أَصاحِ، أَلَمْ تَحْـزُنْــكَ رِيــحٌ مَرِيضَــةٌ ويَرْقٌ تَلالا بالعَقِيــقَيْــنِ لامِــعُ
فإنَّ غَرِيــــبَ الــدّارِ ممّــا يَشُـوقُــهُ نَسِيمُ الرِّياحِ و البُــرُوقُ اللَّوامِـعُ
نَـظَرْتُ عــلى فَـوْتٍ، وأَوْفَى عَشِـيَّةً بِنـا مَنْظَرٌ مِن حِصْنِ عَمَّانَ يافِعُ
لِأُبْـصِرَ أَحـيْـاءً بِـخاخٍ، تَضَـمَّنَـتْ مَـنـازِلَهـمْ مِنْها الـتِّــلاعُ الـدَّوافِعُ
ومِنْ دُونِ ما أَسْمُو بطَرْفِي لأَرْضِهِـمْ مَــعانٌ، ومُغْرٌ مِن البِــيدِ واسِــعُ
فأَبْدَتْ كثيراً نَظْـرَتِــي مــن صبَـابَتِــي وأَكْثَرُ مِنْــهُ ما تُجَــنُّ الأَضــالِــعُ
وكَيْفَ اشْتِياقُ المَرْءِ يَبْكِي صبَابَــةً إلى مَنْ نَأَى عن دارِهِ وَهْوَ طائِعُ

يبوح الشاعر في مقدّمة قصيدته المدحية بحنينه إلى الوطن؛ بما فيه من حديث البروق والرياح الحجازية، ويمكن أن نكشف عن تعلّق الشاعر بوطنه، وشدّة ارتباطه به، في بكائه الذي أسرف فيه إسرافا جمّا، ودلالات الألم و الحزن في مفرداته وتراكيبه، بالإضافة إلى تكراره أسلوب الاستفهام في أبياته ثلاث مرات، والتنويع في أدوات الاستفهام التي استخدمها (هَلْ طَرَبِي به، أَلَمْ تحزُنْكَ رِيحٌ مريضةٌ، كَيْفَ اشْتِياقُ المَرْءِ)، ليخرج الاستفهام إلى غرض الألم والأسى، ويتبدّى لنا ذلك بشكل واضح في قوله(وأكثرُ مِنْهُ ما تُجَنّ الأضالعُ)، وذلك بسبب ا بتعاد الشاعر عن وطنه الذي يتكامل معه، ويحقّق فيه وجوده.

و إذا كانت أبيات عبيد الله بن قيس الرقيّات السابقة؛ تنبض بصدق العاطفة، ورهافة الإحساس، لأنّها تدعو للديار بالسقيا، بعد أن أصابتها ظروف الزمان، فإنّ أبيات الأحوص، تدلّ على شدّة شغفه بوطنه الذي لا يعادله شغف، فقد استطاع أن يتحوّل عن الوصف الحسي للمكان، ليشير إلى أثره في نفسه، فمن السّهل أن يسكن الشاعر في المكان، لكن ليس من السّهل أن يسكن المكان فيه.

خاتمة:

إذن فالانتماء إلى الوطن ظاهرة اجتماعّية وفكريّة تجلّت في القصيدة الأمويّة _في ضوء التبدلات السياسيّة والاجتماعيّة والحضاريّة التي طرأت على المجتمع_ في صور متعدّدة؛ منها مقدّمات القصائد الأمويّة، لتبدو تلك

---

[22]. الأحوص. *الديوان*(القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990م)183-185. عمّان: بلد في طرف الشام وكانت قصبة أرض البلقاء. سلع: جبل بسوق المدينة . *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)4/151، 3/236. أصاح: ترخيم صاحبي. ريح مريضة: ليّنة الهبوب. العقيقان: العقيق بناحية المدينة، وفيه عيون ونخل، وقيل هما عقيقان؛ الأكبر: وهو مما يلي الحرة ما بين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل، والعقيق الأصغر: ما سفل عن قصر الراجل إلى منتهى العرصة. *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م)4/139. الفوت: السبق. أوفى: أشرف وارتفع. يافع: مشرف ومرتفع. أحياء: مفردها حي، وهو البطن من بطون العرب، يقع على بني أب قلوا أو كثروا، ثم توسعوا فيه فأطلقوه على منازل الحي نفسه. خاخ: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. *معجم البلدان*(بيروت: دار صادر، 1977م) 2/335. التلاع: مفردها تلعة، وهي أرض غليظة مرتفعة يتردد فيها السيل، ثم يدفعها إلى تلعة أسفل منها، وهي مكرمة للنبات. معان: مدينة في طرف بادية الشام، تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. *معجم البلدان* (بيروت : دار صادر، 1977م) 5/153. المغر: جمع أمغر ومغراء، وهو ما في لونه شقرة تعلوها كدرة. أجنّ الشيء: ستره وأخفاه. الأضالع: جمع ضلع، وهي عظام محاني الجنب.

المقدّمات في كثير من جوانبها صياغة فنيّة، لتجربة وجدانيّة، عرفها الأمويّون، وعبّروا من خلالها عن عواطفهم ومشاعرهم تجاه وطنهم.

فالطلل في مقدّمة القصيدة الأمويّة كان رمزا للانتماء إلى المكان في أرض الجزيرة العربية، وهو ظاهرة لها دلالتها العميقة من حيث ارتباطها بالجماعة البشريّة التي كانت تنتقل بين أمكنة متعددة في أرض الجزيرة العربية بسبب عوامل الطبيعة القاسية، ما يجسّد معاناة شعوريّة جماعيّة، لذلك كان افتتاح المقدّمات الطلليّة بصيغ الاستفهام والأمر والنداء يحمل صوت الشاعر المتألّم للاندثار والعفاء في ظاهرة الطلل بوصفه يرمز لوطن مفقود.

و تتبدّى لنا في المقدّمة الغزليّة ومقدّمة الطيف علاقة الانتماء إلى المكان بشكل واضح أيضا؛ فقد كان الوطن حاضرا في وجدان الشاعر بتفاصيله المختلفة، إذ إنّ ابتعاد الشاعر عنه، لم ينسه إياه، بل بالعكس نراه يتمتّع بحياة مستمرّة في أعماق الشاعر وفي خياله، فيظهر الوطن في تشكيل لغوي عن طريق صور متداخلة تمثّل الوطن، ما يجسّد رغبة الشاعر الأمويّ في تأكيد الانتماء إلى شيء مركوز وعميق في الذات، وأليف لديها، يحمل قيم الأمن والطمأنينة والدفء؛ فموطن الشاعر ليس مساحة جغرافيّة وحسب، وإنّما هو_أيضا_ عالم يفيض بالأحاسيس والذكريات التي تشدّه دوما إليها، وتجعله يشعر بإنسانيّته وكينونته في ظلها.

المصادر والمراجع:

1- ابن الرقاع العاملي، عدي. *الديوان*. تحقيق: الدكتور نوري حمودي القيسي، الدكتور حاتم صالح الضامن. بغداد: مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1987م.

2- ابن قيس الرقيّات، عبيد الله. *الديوان*. تحقيق وشرح محمد يوسف نجم. بيروت: دار صادر.

3- الأحوص الأنصاري. *الديوان*. جمعه وحقّقه: عادل سليمان جمال. قدّم له: الدكتور شوقي ضيف. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1990م.

4- الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي. *الديوان*. صنعة السكري. تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة. دمشق: دار الفكر، الطبعة الرابعة، 1996م.

5- الأصفهاني، أبو الفرج. *الأغاني*. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1976م.

6- اسليم، فاروق أحمد. *الانتماء في الشعر الجاهلي*. منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م.

7- إسماعيل، عزّ الدين. *التفسير النفسيّ للأدب*. بيروت: دار العودة، دار الثقافة.

8- باشلار، غاستون. *جماليات المكان*. ترجمة: غالب هلسا. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، 2006م.

9 - البكري الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*. حقّقه وقدّم له وصنع فهارسه: الدكتور جمال طلبة. بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998م.

10- جرير. *الديوان*. شرح: محمد بن حبيب. تحقيق: نعمان محمد أمين طه. القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، 2006م.

11- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله. *معجم البلدان*. بيروت: دار صادر، 1977م.

12- ذو الرمة، غيلان بن عقبة العدوي. *الديوان*. رواية أبي العباس ثعلب. حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: عبد القدوس أبو صالح. بيروت: مؤسسة الإيمان للتوزيع والنشر والطباعة، الطبعة الأولى،1982م.

13- رومية، وهب. *قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأمويّ بين الأصول والإحياء والتجديد* . دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1981م.

14- القشيري، الصّمّة بن عبد الله. *الصمّة بن عبدالله القشيري حياته وشعره* . جمعه وحقّقه وشرحه وصنع فهارسه: الدكتور خالد عبد الرؤوف الجبر. عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2003م.

15- الطرماح. *الديوان*. حقّقه: عزّة حسن. دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، 1968م.

16- الفرزدق. *الديوان*. شرحه وضبطه وقدّم له: علي فاعور. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1987م.

17- اليوسف، يوسف. *الغزل العذري "دراسة في الحب المقموع"*. دار الحقائق، الطبعة الثانية، 1982م.

الرسائل:

دواليبي، أحمد. *مظاهر الغربة النفسية في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأمويّ* . جامعة حلب: دكتوراه، 2000 م.